مقالات باكون

باكون أشهر مشاهير فلاسفة الانكليز، كان له تأثير كبير في عصره ، وهو يُعدُّ مؤسس الفلسفة الحديثة المبنية على الاختبار والاستقراء . وقد شاء صديقنا محمد لطفي جمعه الكاتب الالمعي والأصولي الضليع أن يتحف قرّاء « الزهور » بمختارات من مقالات هذا الفيلسوف . واليك النبذه الأولى منها :

١ — أصحاب السلطة وأهل المكانة العالية

وإنَّا أُناسٌ لا توسُّطَ بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

إن من ولي أمراً كبيراً يكون عبداً ذليلاً لثلاث : أمته وصنعته وسمعته . فيطيع وليَّ أمره طاعةً عمياء ، ويردعه صيتهُ عما تميل اليهِ نفسهُ ، وتستغرق أعماله كل أوقاتهِ . وأيُّ رجل يشتري بحريته قوةً ، ويسعى لنيل الحول على غيره فيفقد سلطانه على نفسه ؟

وان أحد الناس يجهد نفسهُ لينال سمعةً . وما السمعة الاَّ أم المتاعب ؛ فقد يدفع حبُّها الرجل الى اقتراف الذنوب ، فيصل الى المكانة السامية بعد ان ينال شرفه الاذى

والسبيل الى العلى غير ميسر ، والدرب الى الصيت زلق لا تؤمن عاقبة السير عليهِ . وان من تزلُّ قدمهُ فقد هوى ، او عاد ذليلاً محسوراً . وأذكر قول شيشرون « اذا أفل نجمُ سعدك ، ووضعك سواد حظك وأمسيت وضيعاً بعد ان كنت رفيعاً ، فخليقٌ بك أن لا تعيش »

واذا شاء من حصل على السلطة والسطوة أن يتخلى عنهما لا يستطيع

الى ذلك سبيلاً . فاذا استطاع ذلك قلّت رغبته في التخلي ولو اشابه كرّ الغداة ومرّ العشيّ . ومثله كمثل العجوز من النساء ، فانها تفتأ تتبرّج وتتزين كأنها تهزأ بالدهر والدهر منها هازئ

واذا تاقت نفوس ذوي الصيت والسمعة الى السعادة يوماً ، فيكفيهم أن يسمعوا بها ممن يتطلب مكانتهم ويسعى في الحصول على ما لهم من السطوة والسلطان . لأنهُ لا يحبّب الصيت للانسان سوى ان مئين من الناس يتمنون ولو بجدع الأنف أن ينالوا مناله

ولو علم الناس بما يلاقيه أصحاب المكانة السامية من المتاعب ، لاكتفوا بما لديهم . ولكن

لا يعرف الشوق الاَّ من يكابده　　ولا الصبابة الاَّ من يعانيها

وأحدنا أول من يشعر بهمومه ومتاعبه وآخر من يحس بعيوبه ومثالبه

وقد لا يستطيع من يقوم بشأن الناس أن يقوم بشأن نفسه ، فيكون أجهل الناس بحاله ويكون الناس أعرف بهِ منهُ

وان المكانة السامية تمكن صاحبها من صنع الخير وعمل الشر . وخير ما ينجي من عمل الشر هو النية الصالحة وعدم القدرة على اتيانهِ . واما صنع الخير فهو أسمى المقاصد وخير ما تطمح له النفس الفاضلة . ومن كانت نيته صالحة فان له عند الله ثواباً وأجراً . اما الناس فلا يؤمنون الاَّ بما يرونهُ امامهم من الأعمال الصالحة . وليس في طاقة أحد الناس ان يصنع ما ينويهِ من خير ، الاَّ اذا كان قادراً ذا سطوة ونفوذ . ولم يكن لله في خلق الانسان من غرض سوى أن يكون الانسان مخلوقاً خيراً ،

يعمل الخير ويقابل الخير بالخير. وليس يهدأ قلب الرجل في صدره ، الاَّ اذا صنع الخير أو نواه

وكن اذا وليت منصباً مقتدياً بمن سبقك اليهِ ممن كانوا مفلحين . ولا تنسَ أمر من أفسد قبلك لأن لك في أمره عبرة . واذا رأيت خللاً في ما بين يديك من العمل فاجهد نفسك في إصلاحه ، ولا تعجب بنفسك ولا ترمِ من سبقك بالعجز والتقصير

ولا تعمل عملاً الاَّ اذا كان النظام رائدك ؛ ولا تكن متشبثاً في أمورك . ولا تخفِ أمراً لا يخشى على عملك من افشائهِ

ولا تمكّن أحداً من سلب حقوقك . ولا تدع غيرك ينال مما لك من النفوذ منالاً . وكن عليماً بشؤون من وليت امورهم ، وكن منهم بمثابة العقل المدبر من الجسم المطيع

ولا تحجب نفسك عمن له شكوى يبثها . واسمع ما يبلغك من النصح والارشاد واعلم ان كل كلمة تطرق اذنك لها نفع في الحال او في المآل

وقد يجبر صاحب المنصب الرفيع على ذنوب يأتيها رغم أنفه . منها المهلة في انجاز الاعمال ، والتدني الى الرشوة ، والشدة واللين . ولئلا يتمكن منك حب المهلة في اداء ما يجب ، لا تحجب عنك من له شكوى يبثها ، ولا تخلف ميعاداً ، ولا تبدأ بعمل قبل ان تفرغ مما قبله ، ولا تمزج أمرين لا علاقة للواحد بالآخر ان استطعت ذلك سبيلاً

ولأجل ان تكون ذا عفة اربط يديك وأيدي غيرك ممن يأتمرون

بأمرك برباط القناعة . ومر نفسك ومرهم بأن لا يقللوا من مقدار نفوسهم ليكثروا من قدر ثروتهم . وكن غليظاً شديداً على من يهبك هبة لتعمل له عملاً . واذا كنت كاملاً عفوفاً فقد أمنت نفسك ومن يلوذ بك . ولا يرتدع من يحاول ان يرشوك الاَّ اذا أظهرت له الكمال والعفة ، وأبيت عليهِ التملق والاكرام

ولا تجعل لأحد سبيلاً يمكنهُ من اساءة الظن بك . فان الشك اول مراتب اليقين . ومن شك في أمانتك لا يلبث ان يؤمن بخيانتك

واعلم ان من تناءى عن مشربه قد يحرّك نفوس أهل الشر والعدوان فيرتابون من أمره . فاذا شئت ان تحول عن مبدإٍ كنت بهِ معروفاً ، فلا تدع الناس يقولون ما لا يعلمون ، ولا تخفِ عليهم من أمرك شيئاً . ولا تقرّب اليك من هو أقل في المقدار فقد يظن أهل الشر انه واسطة في الشر وان المال يأتيك على يديه

واعلم ان الحدة والخشونة تولدان الكراهية والبغضاء . اما الصرامة والجفاء فتولدان الخوف والتبجيل . وكن اذا شئت ان تلوم من يستحق اللوم مهاباً وقوراً ولا تكن قادحاً مهيناً . ولا تكن ليناً فتعصر فان اللين يورث الذل والهوان . ومن يسرف في تبجيل الناس فقد أودع نفسه في أيديهم أسيراً

وللشهرة تأثيرٌ في خلق الرجل . وكان أحد الحكماء يقول : إنَّ أكابر الرجال صناديق مقفلة مفاتيحها الارتقاء الى ذروة المجد . فاذا بلغ أحدهم غايته ، فتح وبان ما فيهِ ان خيراً فخيرٌ وان شرّاً فشرٌ

وبلوغ ذروة المجد يصلح النفوس الخيّرة ويفسد نفوس أهل الشرّ. وأنتَ ترى شبيه الشيء منجذباً اليهِ . فان كانت نفس الرجل كريمة جذبها الخير ، وان كانت شريرة جذبت اليها الشرّ . وليس للفضيلة الكامنة في النفوس مكان سوى المجد والشرف . ولذا ترى النفوس الكريمة وهي قبل ان تصل الى ما تعلل بهِ نفسها متقدة مشتعلة ، فاذا بلغتهُ اطمأنت وسكنت اليهِ كما يسكن الطفل الى صدر أمهِ

واعلم ان سبيل المجد وعرٌ . فارتكن فيهِ الى من يعضدك حتى تصل الى غايتك ، فتستطيع ان تقف آمناً شرَّ السقوط . واذا جاء ذكر من سبقك فاذكره بالخير فان في ذلك خيراً لك ولهُ

واذا كان لك رفاق في عملك ، فكن معهم رقيق الجانب ، ليّن الخلق حسن العشرة . ولا تأنف من ان تشاورهم في الأمور ، ولا تكن في كل حال مستقلاً برأيك . واذا كنتَ مع قوم في حديث لا دخل له بعملك فاطرح العظمة جانباً وابدُ لهم كما يبدو الرجل الكريم

* * *

٢ — جمال الوجوه

جمال الوجهِ مع قبحِ النفوسِ كقنديلٍ على قبرِ المجوسِ

إنَّ النفوس الجميلة كالجواهر الكريمة ، لا يبدو بهاؤها الاَّ اذا رُصّعت في قالب خلوٍ من التزيين والتحسين. وان طلعةً ترى فيها الهيبة والجلال خيرٌ من محيا ترى فيهِ البهاء والجمال

ولقد يندر ان ترى رجلاً ذا جمال فائق قد نال المكرمات وحاز الفضائل . وكأن الطبيعة شاءت ان يكون ذو الجمال خلواً من العيوب الظاهرة ، ولكنها لم تشأ ان يكون جميلاً كاملاً . ولذا أنتَ لا ترى بين أهل الجمال رجلاً ذا نفس كبيرة او عقل عظيم . وانهم يفضلون التأدّب والاحتشام على السموّ والعظمة . ويتمنى أحدهم ان يكون مكان الاجلال والاكرام . ولا يرجو ان يكون قابضاً على صولجان دولة الأقلام

ولقد حفظ لنا التاريخ ذكر كثيرين ممن جمعوا بين جمال الوجوه وكرم النفوس . فقد كان القيصر اوغسطس قيصر الرومان أجمل أهل زمانه . وكان اليونان يفاخرون الأمم بجمال السيباديس . وكانت أمة الفرس تضرب بجمال سلطانها اسماعيل الأمثال

وليس لون الوجه وحسن تقاطيعه ورقة الانسان ورشاقته تكفي لأن يكون جميلاً ؛ لأن الجمال معنى لا يستطاع التعبير عنهُ ، وليس في في قدرة المصوّر البارع ان يظهره في صورته . وقد لا يبدو ذلك المعنى الاَّ بطول المشاهدة

وليس الاحكام في الخلق جمالاً . وانك لا تجد الجمال النادر المثال الاَّ في شيء لم يبلغ فيهِ الاتقان حدَّه

ولقد زعم (أبلس) المصوّر أنهُ يصوّر أبدعَ الوجوه اذا ما أضاف الى عيون المها أنفاً كالسيف أو أدقّ وثغراً كالدرّ والمرجان

وخطر ببال (ألبرت دورو) ان يخلق انساناً كامل الجمال اذا اعتمد في خلقهِ على التناسب في قياس الأعضاء

على ان مثل تلك الصورة لا تنال رضى غير مبدعها

وليس من المحال ان يصوّر مصوّرٌ وجهاً فيهِ من الجمال ما لم نرَه من قبل. على ان مثل ذلك الوجه لا تكون للفن او للصنعة فيهِ يد ، انما يكون خالقه قد ألهم إلهاماً إلاهيًّا كما يوحى الى الشاعر بالمعاني والى المغني بالأنغام وانك ترى وجوهاً ليس للإحكام فيها أثرٌ واذا نظرتَ اليها وجدتَ بها من الجمال ما لا تجده في سواها

وليس للشباب يد في الجمال . وان صدق قول القائلين بأن رشاقة الحركات أصل كل جمال لكانت المرأة البالغة من العمر عتياً أجمل من الفتاة اليافعة لأنها نالت من الرقة والرشاقة حظاً أوفر

وقد جاء في المثل السائر ان الشباب جمال وقد يحق ذلك القول على الشباب اذا عُدَّ جمالاً ، لأنهُ ستار للعيوب والجمال كثمر الغيظ لا يلبث ان ينضج حتى يبلغهُ الفساد . وقد يكون الجمال والشباب مفسدة للمرء أي مفسدة

ولو كان الجميل فاضلاً بانت فضائله كالشمس التي تكامل ضوؤها . ولو كان ناقصاً بدا نقصه كالغيم في السماء الصافية

نقله عن الانجليزية

محمد لطفي جمعة المعاصي